اللغة الفرنسية في الجزائر
بين الحاجة الحضارية ومخلفات الاستعمار

د . منصور رحمانـــي
جامعة جيجـــل

لقد ثار جدل كبير حول وضع اللغة الفرنسية في الجزائر ، بسبب المفارقات الناجمة عن هذا الوضع ، فهي من جهة لغة المستعمر الذي أذاق الجزائريين ما لم يذقه غيرهم في التاريخ القديم والحديث من الذل والخسف والنكال والمسخ ودفعت الجزائر الثمن غاليا لنيل استقلالها ، ومات ملايين الجزائريين من أجل استرجاع السيادة الوطنية بلغتها ودينها غير منقوصة ، ومن جهة أخرى فإن الاهتمام الذي لقيته الفرنسية ولا زالت تلاقيه في الجزائر ليخيل لمن لا يعرف علاقة الجزائر بفرنسا أن فرنسا قد أسدت للجزائر خدمات لا تقدر بثمن مادي ، وأحسن ما نجازي به فرنسا هو التمكين للغتها التي لا تعتز بشيء اعتزازها بها في الجزائر ، وذلك يعني بالضرورة أننا ندمنا على المقاومات الشعبية والثورة المسلحة وأخطأنا بتحقيق الاستقلال ، واهتمامنا باللغة الفرنسية هو في الواقع تكفير عما قام به المجاهدون تجاه فرنسا .

ويختلف الجزائريون في تفسيرهم لهذا الاهتمام فالمتحمسون للغة الفرنسية وهم أقلية في السلطة يتذرعون بقولهم بوجوب التفتح على اللغات والثقافات

الأخرى ، ولن نتحدث هنا عن شداد الآفاق الذين لا يعرفون من تاريخ الجزائر إلا الفترة الاستعمارية ، وهنا تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات أولها هل نحن في حاجة إلى الفرنسية إلى هذه الدرجة للنهوض الحضاري الذي لا يصلح عندنا إلا بها ، أم أن ذلك ناتج عن عقليات خلفها الاستعمار غداة خروجه ؟ وهل يليق أن تدرس اللغة الثانية في مستوى الثانية ابتدائي ، وماهي الآثار الناجمة عن ذلك ؟ وما هي خلفيات قضايا التعريب في الجزائر ، وإلى أين يريد أن يتجه الحاكمون في الجزائر ؟ أما الفريق الثاني الذي يمثله أكثرية الشعب الجزائري فهو يرى أن هذا الاهتمام مرده المخلفات الاستعمارية ، وفي هذه الصفحات نحاول أن نستجلي عين الحقيقة ، ونزيل الستار عن حقيقة ما يجري في الجزائر في هذا الموضوع بالذات .

اللغات في العالم وموقف الأمم من لغاتها :

يوجد اليوم في العالم عدد كبير من اللغات يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف لغة ومن بينها جميعا توجد إحدى عشرة لغة يتحدث بها 70 % من السكان في العالم[1] ، ومن أبرز تلك اللغات اللغة الصينية التي يتحدث بها 900 مليون فردا والإنجليزية حوالي 400 مليون فردا ، والإسبانية 231 مليون فردا ، والهندية 154 مليون فردا ، والعربية أكثر من 150 مليون فردا ، وهناك لغات بدأت

---

(1) محمد علي الخولي – الحياة بين لغتين – دار الفلاح للنشر والتوزيع الأردن ، طبعة 2002 ص50 .

تزول كما أشار ذلك تقرير لمنظمة التربية والثقافة والعلوم في وقت متقدم من هذه السنة (2005) .

ولقد دخلت اللغة في العصر الحديث في دائرة الصراع الحضاري ، فبذلت الدول التي تحترم ذاتها وكيانها الغالي والنفيس من أجل التمكين للغتها في بلادها أولا ، وخارج بلادها كلما تمكن لها ذلك ، فالدول الأوربية على كثرتها وصغر مساحاتها وقرب بعضها من بعض يمتلك كل منها لغته الخاصة التي لا يمكن التنازل عنها ، وإن تم التنازل عن العملة لصالح العملة المشتركة ، فليتوانيا التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي فرضت غداة استقلالها مباشرة اللغة الليتوانية وأقامت مراقبين لهذا الغرض تراقب الموظفين الروس الذين بقوا بليتوانيا وكذلك الليتوانيين ، وذلك بإجراء امتحان لهم في اللغة الليتوانية ومن يرسب يطرد من العمل ، وحدث أن وجهت إحدى المراسلات من قناة تلفزيونية سؤالا لأحد هؤلاء المراقبين إن كان هذا ليس قرارا جائرا فرد : كلا حتى القطط التي تستعمل في السرك تتعلم أشياء.

وبعد الانفصال بين الشيك والسلوفاك منعت سلوفاكيا استيراد أفلام الكارتون من جارتها التشيك لأنها ناطقة بغير اللغة السلوفاكية ، واتخذت قرارا دخل حيز التنفيذ بداية من 01 جانفي 1997 لتعميم استعمال لغتها في كافة المجالات وكونت مراقبين تابعين لوزارة الثقافة ، وحتى الأقلية المجرية فرضت عليها استعمال اللغة السلوفاكية في الأماكن العامة ، ومن يخالف تفرض عليه عقوبات مالية قاسية تذهب إلى صندوق "من أجل سلوفاكيا" الذي يستعمل في فرض مشاريع لغوية محلية . وبعد حرب 1921 –1922 بين تركيا واليونان تم

تهجير الأقلية اليونانية من تركيا إلى اليونان ، وتم تهجير الأقلية التركية إلى تركيا وهجر ثلاثة ملايين تشيكوسلوفاكي من بلدهم إلى ألمانيا لأنهم يتكلمون الألمانية وفي فرنسا كان الطلاب إلى وقت قريب يعاقبون إذا تكلموا غير الفرنسية ولو خارج الصف[2] .

وبفعل غزو اللغة الإنجليزية للعالم عملت العديد من الدول التي تحترم هويتها ولغتها على إيقاف هذا الغزو ، فسعت اليابان لمواجهة الهيمنة الأمريكية على الأنترناث ، وركزت على تكنولوجيا الترجمة الآلية ، وهذا المشروع سيكسر حاجز القطب اللغوي .. كما تسعى دول أخرى لفرض لغتها على الساحة العامية مثل ألمانيا التي تتجه حاليا إلى حلف لغوي يجمع بينها وبين سويسرا والنمسا[3] .

وفي فرنسا التي تعتبر من أكثر البلدان اعتزازا بلغتها وذلك منذ إزالة اللهجات المحلية الإقليمية سنة 1789 وإحلال الفرنسية الوطنية محلها لم تتقبل الهيمنة الثقافية واللغوية الأمريكية ، واعتبر بعض المسؤولين في فرنسا أن بلادهم تتعرض لاستعمار يجب مكافحته فقد وضع "جاك توبون" وزير العدل الفرنسي الأسبق كتابا في أوائل الثمانينيات بعنوان "فرنسا المستعمِرة" بفتح الميم ، أما زميله "جاك لانج" أشهر وزراء الثقافة الاشتراكيين في فرنسا فقد دعا في مؤتمر نظمته اليونسكو في مكسيكيو سيتي إلى حرب صليبية ضد الاستعمار الأمريكي

---

(2) http://www.algeria-voice.org/Alayam/Rijal/P8/p8.html

(3) محمد محمد داوود – العربية وعلم اللغة الحديث – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2001 ص283.282 .

المالي والثقافي..[4] ، وحدث عام 1976 زمن حكم "جيسكار ديستان" ، أن صدر قانون يحرم بموجبه استعمال اللغات الأجنبية في الإعلانات والإشهار. وصدر قانون آخر مماثلا له سنة 1995 يمنع بموجبه استعمال اللغة الإنجليزية في الإعلانات وداخل الأماكن العامة، وصدر سنة 1996 مرسوم يقر بموجبه ضرورة تقديم الإذاعات الفرنسية لما يقل عن نسبة 40% من الأغاني الناطقة بالفرنسية على مدار مدة البث اليومي!.

واليوم اقترح وزير فرنسي عدم منح الجنسية الفرنسية لمن لا يجيد اللغة الفرنسية ، وأكثر من ذلك اشترط الوزير المكلف بالاندماج ومكافأة الفرص "نيلي أونيل" أن لا تمنح الجنسية الفرنسية لمن لا يدرك معنى المساواة بين الرجل والمرأة ولمن يتزوج أكثر من امرأة ، ومن يمارس الختان أو المختنين [5] ، وقد رفضت وزارة الداخلية الفرنسية من طلبات الجنسية 60ألف طلب من أصل 90 ألف طلب بسبب الجهل اللغوي والاجتماعي المدني والماضي الانحرافي لعدد كبير من المهاجرين..[6] .

وفي مقابل وجود هذه الدول التي تعتز بلغاتها فإن هناك دولا من العالم المتخلف سرعان ما تخلت عن لغاتها لصالح عدوها الذي استعمرها بالأمس ، ومن تلك الدول في إفريقيا تشاد والسنغال والغابون وفولتا العليا والنيجر ، فجميع هذه الدول تخلت عن لغات شعوبها وأحلت محلها اللغة الفرنسية لغة رسمية ، ففي

---

(4) سعيد اللاوندي – بدائل العولمة - ...ص129

(5) جريدة الخبر عدد يوم 2005/4/11 ص07 .

(6) بوعلام رمضاني – فرنسا تريد متحدثين بلغتها لتمنحهم جنسيتها – جريدة الشروق اليومي ص15 – المجتمع .

السينغال مثلا يتكلم 90% من السكان اللغة الولفية ، وفي النيجر يعرف السكان الهوسا ، واختيار الفرنسية لغة رسمية جاء بفعل استيلاء بعض المخلفات الاستعمارية الفرنسية على مقاليد السلطة في بلدانهم ، حيث كانت السلطات الاستعمارية تثير الخلافات بين الجماعات اللغوية في البلاد وتحت ذريعة عدم تفضيل جماعة على أخرى اختارت النخب الحاكمة اللغة الفرنسية ، ونفس الأمر حاولته ولا تزال تفعله فرنسا مع الجزائر بالتشجيع على الأمازيغية ، وإثارة الخلاف بينها وبين العربية ليخلو المجال للغتها الفرنسية ، ولولا أن العربية هي لغة القرآن لتم لها ذلك منذ زمن بعيد.

اللغة الثانية، الإيجابيات والسلبيات :

لا ينكر أحد فوائد تعلم لغة ثانية أو ثالثة أو أكثر ، فاللغة وسيلة للتواصل بين الأجناس والشعوب ، والذي يعرف لغات الآخرين يمكنه أن يفهمهم أكثر مما يفهموه هم ، وذلك يؤدي به إلى أن ينتفع منهم أكثر مما ينتفعون هم به أو منه ، ولذلك دعا الإسلام في مضمون بعض نصوصه إلى تعلم لغات الآخرين معتبرا أن من تعلم لغة قوم أمن من شرهم ، واليوم أصبح تعلم اللغات من الفروض الكفائية لتبليغ الرسالة والدين إلى الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لتعليم ملايين المسلمين من غير العرب ، وأيضا يجب تعلم اللغات الأخرى للإفادة من خبرات وعلوم الآخرين في المجالات المختلفة ، غير أن تعلم اللغات الأخرى لا ينبغي أن يكون على حساب اللغة الأم وهي اللغة العربية عندنا ، ولكي تكون اللغة الثانية مفيدة ومؤتية لثمارها المرجوة ينبغي مراعاة ما يلي :

1 – يجب أن يتم تعليمها بعد أن يكون المتعلم قد ألم بالكثير من اللغة الأولى

وإلا فإن تعلمه للغة الثانية لن يكون حسنا ويكون الفرد حينئذ يعرف شيئا من هنا وشيئا آخر من هناك من دون أن يبرع في واحدة منهما ، ولقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائية اللغوية ذات أثر سلبي على الذكاء فلقد رأى "وزغيربر" سنة 1935 أن الثنائية تدمر الذكاء والإبداع وأنها إذا انتشرت في شعب ما فإنها تدمر ذكاءه وإبداعيته لأجيال طويلة ، وكان هذا موقف الكثير من العلماء الألمان دعما لنظرية نقاء العرق ونقاء اللغة الألمانية ، وتوصل باحثون آخرون في دراسات أمريكية تمت بين سنتي 1929 و 1939 إلى أن الشخص الثنائي اللغة يفكر بلغة ويتكلم بأخرى مما يجعله مترددا عقليا ومرتبكا .

2 – بالنسبة للأطفال يجب أن يتعلموا اللغة الثانية بعد تحقق أمرين ، الأمر الأول أن يكتسب الطفل مهارات النطق باللغة الأولى لأن ذلك مؤشر على نمو عقله وإمكانه أن يتعلم لغة أخرى ، وقبل ذلك فإن تعلم اللغة الثانية يؤدي به إلى أن يجهل اللغتين معا ، فإذا كان الطفل ضعيفا في اللغة الأولى بسبب عدم تعرضه لها في البيت بشكل كاف فإن تعرضه للغة الثانية سيضعف اللغة الأولى كما أن ضعفه في اللغة الأولى سيزيد من ضعفه في اللغة الثانية ، فلا بد أن يذهب الطفل إلى المدرسة وهو يتقن اللغة الأولى ، وإذا لم يكن ذلك ممكنا فلا بد من تعليمه اللغة الأولى قبل أن يتعلم اللغة الثانية ، وتعلمها قبل إتقان الأولى يدمرهما معا [7] ، وبناء على ذلك فإن إنزال تعليم اللغة الفرنسية في المدرسة الجزائرية إلى مستوى السنة الثانية ابتدائي ، ينتظر منه تكوين أجيال أمية في اللغة لا تستطيع الإحاطة باللغة العربية وعلومها ولا بالفرنسية وعلومها أيضا . أما

---

[7] محمد علي الخولي – المرجع السابق – ص 224 .

الأمر الثاني الذي يجب تحققه بالنسبة للتلاميذ والأطفال فهو وجوب أن يكون تعليم اللغة الثانية بعد مرحلة كاملة يقضيها الطفل مع لغته الأولى ، والكثير من الدول المتقدمة تعلم اللغة الثانية بعد ست سنوات من تعلم اللغة الأولى ، وتعلم اللغة الثالثة بعد ذلك بسنتين ، كما هو الشأن في ألمانيا التي تعلم الإنجليزية في السنة السابعة ، وتعلم الفرنسية في السنة التاسعة ، لأن إشغال التلميذ بلغة ثانية إلى جانب اللغة الأولى عند أول عهده بالمدرسة يضر بميل الطفل واستعداده لتعلم اللغة وتعيقه في القراءة و الدراسة بوجه عام وفي التهجية والتاريخ والجغرافيا بوجه خاص ، وقد تؤدي الثنائية في رأي البعض إلى ضعف الميل والمبادأة والاستجابة في الصف ، كما قد ينمو لدى الطفل شعور بكراهية المدرسة ، مما يؤدي إلى التسرب المبكر منها [8] ، ولا شك أن الكثير من أسباب التسرب المدرسي في الجزائر يعود إلى البرنامج الثقيل الفروض على التلميذ ، وتتحمل اللغة الفرنسية الوزر الكبير من تلك الأسباب فالواقع أنها أسوأ المواد بالنسبة للتلاميذ بسبب تعليمها في وقت مبكر إضافة إلى المعامل الذي تحظى به

3 – يجب أن يتم تعليم اللغة الثانية في إطار الثقافة الوطنية حتى لا نثقل العبء على المتعلم بالمصطلحات والأفكار التي تزخر بها هذه اللغة ، فحسبه في البداية أن يتعلم اللغة ، فإذا تم له إتقانها فحينئذ له أن يستعمل ما أتقنه في الاطلاع على ثقافة تلك اللغة ، فإذا خلطنا بين اللغة والثقافة بدا للمتعلم أن هذه اللغة صعبة ومن شأن ذلك أن يخلق في نفسه حاجزا يمنعه من تعلمها .

4 – يجب العلم عند تقرير تعليم لغة ثانية أن الثنائية اللغوية تؤثر على ذكاء

---

[8] محمد علي الخولي – المرجع نفسه – ص217 .

الطفل بما تشكله من عبء تجعله يعاني من إنهاك عقلي لأنه موزع بين لغتين وهذا ما توصلت إليه اختبارات الذكاء عند بعض الباحثين من أمثال "ميشيل " و"ريق" و "سميث" و"ساير " ، فقد وجد "ساير" أن الثنائيين أدنى في معامل ذكائهم من الأطفال الأحاديين ، كما وجد "دارسي" سنة 1946 أن العمر العقلي للأحاديين يزيد عن العمر العقلي للثنائيين ، ووجد " استيوارت" سنة 1951 أن الأحاديين يتفوقون على الثنائيين في اختبارات الذكاء اللفظية والعملية [9] ، وعلى العموم فإن جميع الدراسات التي تقارن بين الأحاديين والثنائيين تشير في أسوأ أحوالها إلى عدم الفرق بينهما ، ففي سنة 1937 درس "آرسينيان" الدراسات السابقة في الموضوع ذاته فوجد أن 60 % من الدراسات السابقة توصلت إلى أن الثنائية تعيق الذكاء إعاقة شديدة ، و 30 % من الدراسات توصلت إلى أن الثنائية تعيق الذكاء إعاقة طفيفة ، و 10 % من الدراسات أفادت أن الثنائية لا تؤثر سلبا على الذكاء [10] .

---

[9] محمد علي الخولي – المرجع السابق – ص 211 – 212 .

(10) محمد علي الخولي – المرجع نفسه – ص212

[11] صادف أول نوفمبر 1954 يوم الإثنين 12 ربيع الأول ، وهو ذكرى المولد النبوي الشريف ، وفي ذلك إشارة من مهندسي الثورة إلى منطلقات الثورة الروحية والوطنية ، كما أن البيان الذي أصدروه ينبض كل حرف فيه بذلك .

[12] عثمان سعدي – التعريب في الجزائر – كفاح شعب ضد الهيمنة الفرونكوفونية – شركة دار الأمة – الجزائر ص36-37 .

لن نتحدث في هذا الموضع عن ممارسات السلطات الاستعمارية في فرض لغتها على الجزائريين منذ أول الاحتلال عام 1830 ، ثم اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية وراء البحر اعتبارا من عام 1884 طبقا لقرار الجمعية الوطنية الفرنسية حيث واجهت مقاومات عديدة راح ضحيتها ملايين الجزائريين في سبيل دينهم ولغتهم ووطنهم ، وإنما نتحدث في هذا الموضع عن الفترة التي تبنى فيها مسؤولون جزائريون اللغة الفرنسية واتخذوا في مقابل ذلك موقفا عدائيا سافرا من اللغة العربية والدين الإسلامي ، فالثورة الجزائرية — كما هو معروف — قامت على كلمة الله أكب[11]ر ، دينها الإسلام ولغتها العربية ووسيلتها الجهاد حتى النصر أو الشهادة ، والمنعرج الخطير الذي غير وجهة الثورة كان بعد مؤتمر الصومام الذي عقد عام 1956 ، حيث حدث في نهاية تلك السنة أن قررت رئاسة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي ينضوي تحته الطلبة المتكونون بالفرنسية والمنخرطون بالمدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية بالجزائر وفرنسا التحاق فئة هؤلاء الطلبة بالثورة ، وكان مقر رئاسة هذا الاتحاد في باريس ، وينتمي جل هؤلاء الطلبة إلى طبقة الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية والأثرياء والمرتاحين اقتصاديا لأنه يستحيل على أي طالب الوصول إلى الجامعة الفرنسية بل والمدرسة الثانوية الفرنسية إذا لم يكن ينتمي إلى هؤلاء الطلبة .. كما التحق زعماء الاتحاد المذكور بمكاتب جبهة التحرير الوطني

بالقاهرة والرباط وتونس وغيرها التي تحولت فيما بعد إلى مكاتب للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سنة 1958 ، هؤلاء الطلبة أحدثوا تغييرا في مسار الثورة التعريبي ، فهم خالقوا الهياكل الإدارية للحكومة المؤقتة التي انتقلت إلى الجزائر بعد الاستقلال لتؤطر إدارة الدولة الجزائرية المستقلة[12] .

والواقع أن هؤلاء الطلبة وجدوا دعما قويا من الأحزاب التي كانت تطالب بالإدماج وتلك التي كانت تتخذ من فرنسا مقرا لها ، كما أن هذه الجماعة كان لها مواقف شاذة من الدين الإسلامي ومن العلم الوطني أيضا ، مما يوحي أن هناك مؤامرة دبرت في فرنسا لاحتواء الثورة وإفراغها من محتواها ، وحدث للجزائر مثل ما حدث للمسيحية بعد المسيح عليه السلام مباشرة ، إذ لما يئس اليهود من القضاء على المسيحيين والمسيحية ، فكروا في تدميرها من الداخل وتطوع للقيام بتلك المهمة "شاؤول" الذي أصبح يسمى فيما بعد "بولس الرسول" فهو الذي جاء بفكرة ألوهية المسيح ، وفكرة الصليب ، والثالوث المقدس ، الأب والابن وروح القدس ، ففرنسا لما عجزت عن القضاء على الجزائر وثورتها بمقوماتها من دين ولغة ، عملت على تنشئة هذه الفئة تحت مسمى براق وهو الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، وهذه الفئة لم تتوان ولا لحظة في التمكين للأهداف الفرنسية في الجزائر ، فاتفاقيات إيفيان أبرمت باللغة الفرنسية على خلاف كل ما يحدث في العالم عندما تقع اتفاقية بين دولتين أن تكون الاتفاقية باللغتين معا ، لكن ذلك لم يحدث في الجزائر ، وفي الوقت

الذي كان المجاهدون حقا يذوقون الأمرين في الجبال كان هؤلاء يعدون أنفسهم لاستلام السلطة بعد الاستقلال ، وقد كان لهم ما أرادوا وما خططوا له ، فما أعلن الاستقلال حتى كان هؤلاء قد سيطروا على الإدارة ونشبوا فيها مخالبهم وقد لاحظ ذلك العديد من المفكرين والكتاب الجزائريين الوطنيين من أمثال الدكتور "رابح بلعيد " الذي نشر صفحات مؤلمة عن تلك الفترة على صفحات جريدة السفير الأسبوعية في وقت سابق ، ومنهم أيضا العلامة محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي قال في أول خطبة جمعة بعد الاستقلال في يوم الجمعة 02 نوفمبر 1962 : الاستعمار كالشيطان لم يخرج من مصالح أرضكم و لم يخرج من ألسنتكم ومن بعض قلوبكم فتعاملوا معه بحسب الضرورة والضرورة تقدر بقدرها [13] ، وكنموذج لسيطرة هؤلاء بعد الاستقلال هو سيطرتهم على الإدارة والوظيف العمومي لغربلة ما يتعارض مع الأهداف التي جاؤا من أجلها ، فقد تربع "عبد الرحمن كيوان" على عرش الوظيف العمومي لمدة عشر سنوات ، كما تربع "ميسوم الصبيح" على مدرسة الإدارة التي كانت تدرس عدو مقاييس ومنها بعض اللغات ، سئل هذا الرجل : لماذا لا تدخل التعريب إلى مدرستك ؟ فأجاب : المكان الوحيد الذي بقي طاهرا ويريدون تنجيسه [14] .

وقد أدركت القيادة الفتية التي تولت زمام الأمور في الجزائر بعد الاستقلال فظاعة تغييب اللغة العربية فتقدم مجموعة من أعضاء المجلس التأسيسي – البرلمان

---

[13] جريدة الخبر ليوم 2005/3/12 ص12.

[14] عثمان سعدي – المرجع السابق – ص43 .

– بمشروع لفرض التعريب و جاء في مذكرتهم مايلي :

منذ تأسيس الحكومة الفتية واجتماع المجلس الوطني التأسيسي وقع الكلام كثيرا عن التعريب ، ومع أنّه قد مرّ على ذلك نحو ستة أشهر فإننا لم نشاهد أي أثر للتعريب سوى شيئ ضئيل .

إن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تريد التعريب ، لأنّ اللغة العربية هي اللغة القومية ومع ذلك ما تزال تعيش على الهامش كلغة أجنبية في وطنها والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى . فالإدارات الحكومية لا تعترف ولا تقبل ما يقدم لها باللغة العربية من طلبات وشكاوى ووثائق ، وتجبر المواطنين على تقديمها باللغة الفرنسية ومن الأمثلة على ذلك أن بعض عوائل الشهداء قدموا من شمال قسنطينة للسكن في الجزائر العاصمة وقدموا شهادات مكتوبة باللغة العربية إلى بعض الدوائر الرسمية تثبت أنهم من عوائل الشهداء بحق ليتمكنوا من حقهم فما كان من هذه الادارة إلا أن رفضت معاملتهم و لم تعترف بها، لا لسبب إلا أنّها مكتوبة باللغة العربية وعليهم أن يقدموها باللغة الفرنسية . وقد كان من واجب البلدية وغيرها من الإدارات الرسمية أن توظف من يحسن اللغة العربية لمثل هذه المهمة ليسهل على الشعب قضاء مأربه وتقديم شكاويه بلغته الوطنية والطبيعية ، ولا تكلفه مالا يطيق . وحتى لا يشعر الشعب الذي ضحّى من أجل عزته القوية بالنفس والنفيس أنّ لغته ما تزال كشأنها من قبل غريبة وحتى لا يشعر هذا الشعب – من بقاء سيطرة اللغة الفرنسية – أنّ الهيمنة ما تزال ممثلة في سيطرة لغة المستعمر وأن الاعتذار بالصعوبات التي تحول دون تعريب الإدارات أو إدخال اللغة العربية إليها غير مقبول .

– بمشروع لفرض التعريب و جاء في مذكرتهم مايلي :

منذ تأسيس الحكومة الفتية واجتماع المجلس الوطني التأسيسي وقع الكلام كثيرا عن التعريب ، ومع أنّه قد مرّ على ذلك نحو ستة أشهر فإننا لم نشاهد أي أثر للتعريب سوى شيئ ضئيل .

إن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تريد التعريب ، لأنّ اللغة العربية هي اللغة القومية ومع ذلك ما تزال تعيش على الهامش كلغة أجنبية في وطنها والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى . فالإدارات الحكومية لا تعترف ولا تقبل ما يقدم لها باللغة العربية من طلبات وشكاوى ووثائق ، وتجبر المواطنين على تقديمها باللغة الفرنسية ومن الأمثلة على ذلك أن بعض عوائل الشهداء قدموا من شمال قسنطينة للسكن في الجزائر العاصمة وقدموا شهادات مكتوبة باللغة العربية إلى بعض الدوائر الرسمية تثبت أنهم من عوائل الشهداء بحق ليتمكنوا من حقهم فما كان من هذه الادارة إلا أن رفضت معاملتهم و لم تعترف بها، لا لسبب إلا أنّها مكتوبة باللغة العربية وعليهم أن يقدموها باللغة الفرنسية . وقد كان من واجب البلدية وغيرها من الإدارات الرسمية أن توظف من يحسن اللغة العربية لمثل هذه المهمة ليسهل على الشعب قضاء مأربه وتقديم شكاويه بلغته الوطنية والطبيعية ، ولا تكلفه مالا يطيق . وحتى لا يشعر الشعب الذي ضحّى من أجل عزته القوية بالنفس والنفيس أنّ لغته ما تزال كشأنها من قبل غريبة وحتى لا يشعر هذا الشعب – من بقاء سيطرة اللغة الفرنسية – أنّ الهيمنة ما تزال ممثلة في سيطرة لغة المستعمر وأن الاعتذار بالصعوبات التي تحول دون تعريب الإدارات أو إدخال اللغة العربية إليها غير مقبول .

أولا : لأنّ المسألة قومية ولا يمكن التساهل فيها .

ثانيا : لأننا في عهد الثورة – رغم الظروف الحربية القاسية ورغم فقدان الوسائل من آلات كاتبة ومن كتّاب يحسنون اللغة العربية – كنّا نشاهد أن قادة الثورة يقبلون كل التقارير الواردة إليهم باللغة العربية والفرنسية وتغلبوا على كل الصعوبات التي اعترضتهم بفضل العزيمة الصادقة والإرادة الثورية الجبارة ، فكيف نعجز في السلم تحقيق ما حققناه وقت الحرب ومن أجل هذا ونظرا لكون الجزائر اليوم دولة مستقلة ذات سيادة ، ونظرا لكون الشعب الجزائري شعبا عربيا والوطن الجزائري وطنا عربيا حاول الاستعمار طيلة فترة وجوده بأرضنا مسخ الشعب وفرنسة الوطن تنفيذا لقوانين الحكومة الفرنسية الزاعمة بأن الجزائر ولاية فرنسية ، فلم تستطع فرنسا فعل ذلك . وتنفيذا لارادة الشعب الصارمة التي صارعت الادارة الاستعمارية بالمقاومة السلبية والإيجابية وتماشيّا مع تصريحات رئيس الحكومة أحمد بن بلة الذي قال : نحن عرب ، نحن عرب ، نحن عرب ثلاث مرات ،ونظرا للتصريحات الصادرة عن مختلف الشخصيات الرسمية المسؤولة في الحزب والحكومة واستجابة للرغبات الصادرة عن الشعب كل يوم وبمختلف طبقاته نقترح :

أولا : المبادرة بالإعلان الرسمي من المجلس الوطني بأنّ اللغة العربية هي اللغة القومية الرسمية ذات الدرجة الأولى في الجزائر المستقلة ، ويجب أن تحتل مكانها الصحيح وتتمتع بجميع حقوقها وامتيازاتها.

ثانيا : يجب أن يعم تعليمها بأسرع ما يمكن جميع دواليب الدولة الجزائرية التنفيذية والتشريعية والإدارية

ثالثا : يجب المبادرة بتعريب كوادر وزارة التربية الوطنية ووضع برنامج سريع لتعريب التعليم وتعميمه ، لأنّ التعليم عليه المعوّل في تكوين كوادر المستقبل وعلى وزير التربية أن يقوم بما يلي :

1-تأسيس معهد وطني للتعريب في الحال ويقوم هذا المعهد بمايلي :

أ- وضع مجموع قواعد عملية تستخدمها الإدارات.

ب- وضع كتب مدرسية أساسية لتعليم اللغة العربية في مختلف المراحل التربوية من التعليم الابتدائي وإلى الجامعة .

ج - الحرص على تزكية التعليم التربوي للغة العربية ، ونتيجة لذلك يجب أن تصدر الجريدة الرسمية باللغة العربية ويجب تحسين حالة الترجمة وتعميمها ويجب تعريب البريد وكل الوزارات .

وفوق هذا وذاك يجب تعريب الشوارع والأزقّة ، إذ مازالت الشوارع تحمل أسماء : بيجو ، سانت أرنو ، كلوزيل وأورليان وكافينياك ودارمون وغيرها .

توقيع السادة النواب التالية أسماؤهم :

عمار قليل ، مسعود خليلي ، عبد الرحمان زياري ، محمد الشريف بوقادوم عمار رمضان ، يوسف بن خروف ، بلقاسم بناني ، بشير براعي ، محمد الصغير قارة ، بوعلام بن حمودة ، زهرة بيطاط ، محمد بونعامة ، علي علية ، سعيد حشاش ، محمد بلاشية ، اسماعيل مخناشة ، عمار أوعمران ، محمد خير الدين

محمد عزيل ، عبد الرحمان بن سالم ، رابح بلوصيف ، عبد الرحمان فارس أحمد زمرلين ، صالح مبروكين ، مصطفى قرطاس ، الصادق باتل ، دراجي رقاعي محمد عمادة ، أحسن محيوز ، سليمان بركات ، مختار بوبيزم ،ونوّاب آخرون .

وبصراحة فان مطالبة هؤلاء النواب بالتعريب انتهت بالفشل الذريع لأنّ الحكومة الفتية كانت تتذرع بالصعوبات التي تلاقيها في هذا المجال ، وإبطاء القيمّين على صناعة القرار في عهد أحمد بن بلة في إقرار قانون التعريب ولدّ بداية التصدع في الجزائر بين التيار الفرانكوفوني والتيار العروبي .وقد أدرك الرئيس "هواري بومدين" أهمية التعريب فقرر جعله على رأس الثورة الثقافية التي راح يبشر بها بالتوازي مع الثورة الزراعية والصناعية ، وقد سمحت له خلفيته العروبية وعداؤه لفرنسا التي كان يقول عنها بيننا وبين فرنسا جبال من الجماجم وأنهار من الدماء ، تفهم أهمية التعريب وضرورته خصوصا وقد كان من المتحمسين لعروبة الجزائر .وشرع قطاع التربية في عهده بمحو الأمية باللغة العربية في مختلف مؤسسات الدولة وقطاعاتها ، كما تقررّ تعريب العلوم الإنسانية في الجامعة الجزائرية.

لكن عندما بدأ التعريب يأخذ مجراه شيئا فشيئا كانت الجامعة الجزائرية قد خرجت أفواجا من الطلبة الذين درسوا باللغة الفرنسية فقط والذين أصبحوا أساتذة في الجامعات أو تولوا مهمات أخرى في دوائر الدولة وعمل الكثير من هؤلاء على عرقلة التعريب ، وكثيرا ما كانت الجامعات الجزائرية تشهد صراعات حادة بين دعاة التعريب ودعاة الفرنسة .

ولقد مس التعريب العديد من القطاعات مثل التربية وبعض الوزارات لكن قطاعات أخرى هامة بقيت بأيدي المفرنسين ، و لم يهنأ الوطنيون الجزائريون يوما فظلوا يطالبون بالتعريب ، ولقد رأينا ذلك في كتابات العديد من الباحثين مثل المرحوم"مولود قاسم نايت بلقاسم" و الدكتور "رابح بلعيد" والدكتور "عثمان سعدي" والدكتور " محمد مصايف " و"عبد الحميد مهري" و"علي بن محمد " وغيرهم من الذين كانوا يطالبون بقانون يعمم به التعليم في الجزائر وانتظروا حتى جاء يوم 26 ديسمبر 1990 حينما صادق المجلس الشعبي الوطني على قانون تعميم استعمال اللغة العربية ووقعه السيد رئيس الجمهورية يوم 16 يناير 1991 ، لكن وصول رضا مالك إلى رئاسة الحكومة في عهد المجلس الأعلى للدولة أوقف هذا القانون مرة أخرى بدعاوى متعددة ، وهو أول قرار اتخذه عند رئاسته للحكومة ، وبدأ الفرونكوفونيون يشنون هجومات مضادة تهدف إلى التمكين للغة الفرنسية أكثر ، ويعتقدون أن ذلك قد تأتى لهم عندما أوكل إليهم أمر إصلاح المنظومة التربوية في اللجنة التي يرأسها "علي بن زاغو" ويا لها من لجنة ، فقد جاء في مشروع اللجنة وبصريح العبارة : أن اللغة العربية عامل مهم من عوامل نكسة المدرسة الجزائرية ، كما أوصت اللجنة المتكونة من 160 عضوا المنتمي الكثير منها إلى حزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية بتدريس اللغة الفرنسية ، والعودة إلى الوضع السابق الذي كانت عليه المدرسة الجزائرية قبل لمسات التعريب المحدودة [15] .

---

[15] يحي أبو زكرياء - صحفي جزائري مقيم في استوكهولم – مقال إلكتروني .

جهود فرنسا في نشر الفرنسية وموقفها من الفرونكوفونيين :

لا يخرج هدف فرنسا عن أهداف الاستعمار عموما ، فهي عندما تعمل على نشر دينها أو لغتها ، فإنها تفعل ذلك ابتغاء مصالحها ليس إلا ، ومغفل من يعتقد أنها تفعل ذلك لمصلحته مهما تفنن في التملق والتذلل والركوع وحتى السجود لها ، وقد بدا ذلك واضحا في تصريحات بعض المستشرقين والساسة الفرنسيين فقد حدث في مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد عام 1906 عندما اشتكى المنصرون من نتائج أعمالهم وما حققوه ، فأجابهم المنصر والمستشرق الكبير "زويمر" على ذلك بمقولته الشهيرة : "ليست مهمتنا هي تنصير المسلمين فهذا شرف ليسوا جديرين به، ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفي ذلك نجحنا نجاحا باهرا بفضل مدارسنا التنصيرية . و"زويمر" نفسه له مقولة شهيرة أخرى قالها بعد ذلك بـــ30 عاما في مؤتمر المنصرين بالقدس : "إنكم أعددتم نشئا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم عن الإسلام و لم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده الاستعمار المسيحي، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء. إن مهمتكم تمت على أكمل وجه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار ، والسياسة الثقافية لفرنسا في الجزائر لخصها الكاتب الفرنسي "أوغست برنارد" عندما قال : "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية.. ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن

نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو".

لقد بذلت فرنسا الغالي والنفيس في سبيل التمكين للغتها في الجزائر ، وحتى بعد خروجها ولكن بوسائل وطرق جديدة كلها الهدف منها تضييق الخناق على العربية ، وإن كان ذلك بتشجيع اللهجات المحلية ، وقد أسس الفرنسيون عام 1967 الأكاديمية البربرية بباريس لشق وحدة الشعب الجزائري إلى شعبين شعب يتكلم العربية وآخر يتكلم البربرية من أجل هدف واحد هو أن تكون الفرنسية لغة مشتركة بين الشعبين ليتأتى لها ما تأتى لها في السينغال والغابون وغيرها من الدول الإفريقية التي جعلت من الفرنسية لغة رسمية لها ، والفرنسيون في الواقع يحسدون على هذا الوعي والغيرة على لغتهم ، ولذلك فإن المنطق يقر أن دولة بهذا الإحساس الذي تعرف به معنى الوطنية والتضحية من أجلها لا يمكن أبدا أن تضع ثقتها في من خان وطنه أو لغته ، وحتى وإن صدرت كلمات إطراء كما يبدو في حق بعض الفرونكوفونيين فهي ليس إلا لهدف ما ، وذلك مثل ما قاله الجنرال "ديغول" عن مصطفى لشرف حين وجد في الطائرة التي كانت تقل الزعماء الخمسة وأنزلتها القوات الفرنسية في الجزائر حيث قال "ديغول" لما علم أن لشرف قيد مع الزعماء: السيد مصطفى لشرف لا يستحق هذا لأنه ابننا " ومثال ذلك أيضا ما قاله وزير الثقافة الفرنسية "جان جاك إيغلون" في بيان نعي الكاتب الفرانكوفولي الجزائري" محمد ديب" الذي توفي يوم الجمعة 02 ماي 2003 "... أن شعبين صديقين ولغة واحدة فقدوا اليوم كاتبا كبيرا". فالنظرة التي تعبر عن حقيقة الموقف الفرنسي ممن خان وطنه ولغته هي ما قاله الجنرال "ديغول " حين سئل سنة 1959 : لماذا لا تحترم "فرحات

عباس مع أنه يشبهك ؟ فقد كنت في أثناء الحرب العالمية الثانية رئيسا لحكومة فرنسا الحرة في المنفى ، وهو الآن رئيس حكومة الجزائر الحرة في المنفى فأجاب "ديغول" سائله بالقول : ثلاث صفات تجعل الهوة عميقة والشبه معدوما بيني وبين فرحات عباس ، فأنا لم أتزوج بعدوة أي بألمانية ، ولم أخاطب شعبي بلغة عدوي ، أي باللغة الألمانية ، ولم أفتش عن هويتي الوطنية في المقابر[16] .

مآسي الفرونكوفونية في الجزائـــر :

لقد تسبب الاهتمام الزائد باللغة الفرنسية ، واستيلاء الفرونكوفونيين من مخلفات الاستعمار على مناصب حساسة في الدولة في مآسي متعددة أصابت هذا الشعب في ثقافته ودينه ولغته واقتصاده وسائر جوانب حياته ، ومن تلك المآسي ما يلي :

1 – إيقاع الجزائريين في ما يشبه الأمية اللغوية فهم يعرفون عربية غير مكتملة وغير طليقة ، ويعرف الكثير منهم من الفرنسية مثل ذلك ، وقل من يعرف اللغة الإنجليزية التي تسير 80في المائة من برامج الأنترناث ، فالذي يستمع حتى إلى الجامعيين الجزائريين لن يسمع من الكثير منهم إلا خطابا مختلطا بين الفرنسية والعربية ، وكعينة على ذلك ما استمعت إليه مؤخرا في ملتقى البنوك وقوانين الإصلاح الاقتصادي الذي انعقد في جامعة جيجل ، فمن الكلمات الكثيرة المختلطة سجلت : (إلى اليونيسيتي – أنا نظن جي بريفار – اليوم إليا توس ..) ولقد حدثني أحد الأساتذة في جامعة جيجل أن حضر مع زملاء له ملتقى في

---

[16] عثمان سعدي – المرجع السابق – ص37 .

الأردن ، وكانت المداخلات بالعربية الفصحى وبالإنجليزية ، أنهم لم يفهموا شيئا لا بالعربية ولا بالإنجليزية .

2 – تقزيم التحصيل الدراسي وحرمان الكثير من الجزائريين من بعض التخصصات التي يمكن تدريسها باللغة العربية ، فالفرنسية تدرس للتلاميذ منذ الصغر ، ومعاملها المدرسي 03 وذلك يساهم في رسوب الكثير من التلاميذ متوسطي المستوى ، كما أن تدريس الطب وبعض المواد المشابهة بهذه اللغة حرم الكثير ممن لا يعرفونها من هذه التخصصات ، وأصبح يدور في اعتقاد الكثير من الجزائريين أن الطب لا يكون إلا بالفرنسية وأن العربية لا مكان لها في هذه التخصصات ، لكن التجارب في دول أخرى مثل سوريا تفند هذا الادعاء وبشهادة عميد كلية طب أسنان جامعة باريس الذي يقول : إن كليتي تضم طلابا عربا جاؤا للتخصص في جراحة الأسنان من سائر الجامعات العربية ، وأن أكثر طلاب عرب يتقبلون بسهولة المعلومات هم الطلاب السوريون ، والسبب في ذلك راجع إلى دراستهم للطب بلغة الأم "[17] ، وكاعتراف من المسؤولين بفشل الطب عندنا هو ذهابهم للعلاج بالخارج ، فلا ثقة لهم في الأطباء الذين كونوهم في الجزائر باللغة الفرنسية .

3 – تكوين فرد جزائري متذبذب الشخصية وهذا هو الذي جعل الكثير من الجزائريين يسهل ذوبانهم في المجتمعات التي يهاجرون إليها ،فعلى خلاف الجاليات الأخرى التي تعيش في تجمعات وتحافظ على الحديث بلغاتها المحلية فإن الكثير من هؤلاء ينسون لغتهم بمجرد النزول في أرض الدولة التي يستقرون بها .

---

[17] عثمان سعدي – المرجع نفسه – ص222 .

4 – حرمت سيطرة الفرونكوفونيين على العديد من القطاعات في الدولة الجزائر من تطلعات وإفادات من دول كثيرة في قطاعات التعليم والصناعة والزراعة والإدارة والثقافة أيضا ، فالمعروف عن هؤلاء المسؤولين ضيق الأفق وسماؤهم محدودة بما يجري في فرنسا ، في حين أن هناك دولا أخرى قد برعت في مجالات عديدة لم تصل إليها فرنسا بعد .

هل اللغة الفرنسية في الجزائر ضرورة حضارية أم هي من مخلفات الاستعمار ؟

آثرنا أن يأتي هذا السؤال في آخر المطاف حتى يكون الحكم الصادر بعد ذلك قائما على أدلة ملموسة ، ونقول بأن حاجتنا إلى الفرنسية لم تعد كما كانت في بداية الاستقلال ، فقد خرجت المدرسة الجزائرية ملايين المعربين الذين يمكنهم ترجمة كل ما تحتاج إليه البلاد إلى العربية ، وإذا أردنا أن نتفتح على العلوم والحضارات فإن هناك لغات أخرى أولى بالتعلم من الفرنسية مثل الإنجليزية والألمانية والصينية وغيرها ، وبعضها أسهل من الفرنسية وحاجتنا إليها أشد ، كما أن ما كنا نحتاجه من فرنسا يمكن الحصول عليه من دول أخرى وبأسعار أقل ، وكمثال على ذلك السيارات وقطع غيارها وجميع المصنوعات والملابس يمكن الحصول عليها من الشرق الأقصى أو من أمريكا وبأسعار أقل مما تعرضه فرنسا .

إن قرار تعليم اللغة الفرنسية ابتداء من السنة الثانية ابتدائي ، وإلغاء مادة العلوم الإسلامية من المناهج الدراسية ، وزيارات المسؤولين الفرنسيين التي لا تنقطع إلى الجزائر بدء بالرئيس "شيراك" ، ودعوته إلى طي صفحة الماضي وطبع

الكتاب الخاص باللغة الفرنسية في فرنسا وتكوين 2000دكتور جزائري في اللغة الفرنسية ، ومنح التعاون التي دأبت أن تمنحها فرنسا في كل عام لكل من له مشرف مقيم في فرنسا ، ونفور الفرونكوفونيين من الإسلام ومن اللغة العربية كل ذلك يدل ويقطع الشك باليقين الخالص أن الموقع الذي تحتله اللغة الفرنسية في الجزائر ليس إلا مخلفات الاستعمار .

المراجع :

1 – د. محمد علي الخولي – الحياة بين لغتين – دار الفلاح للنشر والتوزيع الأردن ، طبعة 2002 ص50 .

2 – محمد محمد داوود – العربية وعلم اللغة الحديث – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2001 ص283.282 .

3 – عثمان سعدي – التعريب في الجزائر – كفاح شعب ضد الهيمنة الفرونكوفونية –دار الأمة الجزائر .

4 – موقع صوت الجزائر- الأيام رجال .

5 – سعيد اللاوندي – بدائل العولمة

6 – جريدة الخبر عدد2005/4/11 و2005/3/12

7 – جريدة الشروق اليومي

8 – موقع الجزيرة نت

الكتاب الخاص باللغة الفرنسية في فرنسا وتكوين 2000دكتور جزائري في اللغة الفرنسية ، ومنح التعاون التي دأبت أن تمنحها فرنسا في كل عام لكل من له مشرف مقيم في فرنسا ، ونفور الفرونكوفونيين من الإسلام ومن اللغة العربية كل ذلك يدل ويقطع الشك باليقين الخالص أن الموقع الذي تحتله اللغة الفرنسية في الجزائر ليس إلا مخلفات الاستعمار .

المراجع :

1 – د. محمد علي الخولي – الحياة بين لغتين – دار الفلاح للنشر والتوزيع الأردن ، طبعة 2002 ص50 .

2 – محمد محمد داوود – العربية وعلم اللغة الحديث – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2001 ص283.282 .

3 – عثمان سعدي – التعريب في الجزائر – كفاح شعب ضد الهيمنة الفرونكوفونية –دار الأمة الجزائر .

4 – موقع صوت الجزائر- الأيام رجال .

5 – سعيد اللاوندي – بدائل العولمة

6 – جريدة الخبر عدد2005/4/11 و2005/3/12

7 – جريدة الشروق اليومي

8 – موقع الجزيرة نت